

شبان هذا الجيل

حديث مع حضرة صاحب الدولة اسماعيل صدقي باشا

أقبل على مشرق الوجه خفيف الحركة متجدد الشباب ، ترتسم على شفثيه الابتسامة التي حار الناس في فهم معانيها إذ هي لا تتغير بل تبقى هي هي في أعقد المواقف وفي أبهج الأوقات ، حتى لقد رأيتها تلازمه يوم أرادوا اغتيال حياته في محطة القاهرة كما رأيتها تلازمه زفاف كريمته في رمل الاسكندرية . أقبل على وهو يحك احدى راحتيه بالأخرى ليدفئها قبل أن يمدها للسلام وابتدرنى قائلاً :

” لو علمت أهمية العمل الذى قطعته الآن لأخلو إليك هذه الساعة لأدركت منزلة مجلة الشؤون الاجتماعية من نفسى . أنتى أحنى الوزارة بهذه المجلة الثينة القيمة ، وأرجو أن تتحمل هذه التهنئة الى معالى وزيركم “ .

قلت : أشكر لدولتكم هذه المجاملة المشرفة .

فقاطبنى بإشارة حاسمة وقال : لا والله ، فلست أريد مجرد المجاملة فالحقيقة هي أن مجلة الشؤون الاجتماعية جديرة بالمطالعة والتشجيع ، ويجب تأييدها وتعميم نشرها طالما حافظت على هذا المستوى من البحث والتحريز . بل لعلى أذهب الى أبعد من ذلك فأقول : إن هذه المجلة لو لم توجد لوجب إيجادها . فهى تفيد الأسرة والشبان المسئولين عن العامل والعلاج أجل فائدة ، وإنه ليسرنى أن أراها بين جميع الأيدى وفي جميع البيوت .

قلت : إن القائمين بأمر المجلة سيسرهم أن يسمعوا هذا التقدير من رجل كدولتكم ولسوف أنقله إليهم كلمة كلمة .

ثم استند دولته الى ظهر مقعده الوثير وقال : والآن وأنا مطمئن الى أن الذى يحدثنى ليس صحافيا سياسيا ، تستطيع أن تسألنى ما تشاء .

قلت : إن من الأمور التي تمنى بها وزارة الشؤون الاجتماعية وتعالجها مجلتها أمور الشباب . ودونكم قد خبرتم الشبان المصريين في وظائف الحكومة وفي أعمال الشركات والمتاجر . فما أبرز عيوب هؤلاء الشبان وما أنصح الوسائل لعلاجها ؟

فتبسم الباشا واعترض قائلاً : ولماذا تريد أن أبداً بسرد عيوب شباننا قبل أن نتحدث عن مزاياهم ومحاسنهم ؟ إن في شباننا المصريين فضائل يجب أن نمجدها ونشيد بها بقدر ما يجب أن نتعهدنا ونتمنيا . ففيهم من دماثة الخلق وأين العريكة وحب المرح وقوة التحمل وسهولة الطبع والقدرة على المحاكاة شيء كثير . وهم لا تنقصهم روح السمو والوثوب ولا الكبرياء القومية التي تجملهم يعترفون بقوميتهم ويحاولون أن يرفعوا هذه القومية إلى مستوى جدير بأن يفخروا بها ويباهوا غيرهم من الشعوب .

نعم إن العراك الناشب بين الأحزاب السياسية في مصر منذ عشرين سنة قد وضع أمام أعين شبان هذا الجيل بعض مثل سيئة وبعض قدوات غير صالحة أثرت إلى حد ما في اخلاق طائفة منهم ، اذ عزعت في نفوسهم شيئاً من الإيمان بنزاهة الوطنية المصرية وبعثت فيهم اليأس من صلاح حال أمتهم وصرفت بعضهم عن العمل المنزه لوجه الوطن . وهذه بلا شك سحابة كدرة تغشى جو الشباب في هذه الأيام ، ولكنها على كل حال مجرد سحابة ، وليس للسحاب استقرار ولا دوام .

”بعد ذلك استمع لنفسي أن انتقل إلى عيوب شباننا فأقول إن من أبرزها كره الشباب المصري للمسئوليات وتفوره من الأعمال التي يتحمل تبعاتها وحده . فالموظف الشاب يهرب من المسؤولية بأن يحاول توزيعها على زملائه أو بأن يشرك فيها رؤسائه ويتمنى لو يتغطى دائماً بالرئيس حتى في التفاصيل الثافهة التي لا تستوجب مشاوره هذا الرئيس . ومن ثم كان بطء الآلة الحكومية وطول الإجراءات التي تعطل مصالح الجمهور ، حتى لقد جرى مجرى الأمثال قول الناس ”يوم الحكومة شهر“ وهذه سمعة شائنة نود جميعاً أن نعمل على إزالتها .

”وإذا تحدثت عن الموظف الشاب فإني أتحدث عنه بشيء من التحفظ ، ولا أقصد بقولي هذا نزاهة الموظف ولا شرفه ولا تعففه ، وإنما أقصد ذلك الشعور الداخلي الذي يجب أن يوحى إليه أنه خادم للجمهور وأنه يتقاضى أجراً على هذه الخدمة فيجب أن يؤديها على أحسن وجه ممكن وأنه مادام في ديوانه فكل وقته مكرس للجمهور ، وأن اللحظات التي يقضيها في مسامرة صديق أو في مطالعة صحيفة أو في التنقل بين المكاتب لزيارة الزملاء ، كل ذلك عبث بحق من حقوق الدولة عليه وتعطيل لمصالح يجب أن تنجز في سرعة وفي دقة .

” هذا الشعور الداخلي الذي يجب أن يعتبره الموظف الشاب أول وأكبر رقيب عليه في عمله ، لا يزال في حاجة الى التنمية والتعهد .

” لقد كنت رئيسا للحكومة وفي الوقت نفسه وزيرا لوزارتين مختمتين وكنت أحمل بجانب ذلك كله اعباء أخرى باهظة ، وكان في استطاعتي أن اتخفف من هذه الأعباء أو من بعضها وليكني كنت أو من باني خادم للجمهور أمين على مصالحه فكنت لا أترفع عن قواءه العرائض التي ترفع الى وكنت أحيلها بخطى الى الوزير المختص وأرجو منه أن يتكلم معي بشأنها ، وكان ذلك يقتضى وأنا في هذه السن أن أبدأ عملي في الساعة السادسة من الصباح واستمر فيه حتى ساعة متأخرة من الليل ، فهل يكثر على الموظف الشاب أن يفرغ نفسه لعمله الرسمي ست ساعات ؟ .

» وأعود الى عيوب شبان مصر فأقول إن من أبرزها أيضا أن ميلهم الى الأعمال التي تبعدهم عن المسؤوليات قد أقدمهم عن حب الابتكار ، فهم يدورون دواما في المدار الذي وضعوا فيه وبالكيفية التي رسمت لهم ، ولا يحبون أن يخرجوا منه الى حيث تتكشف لهم آفاق جديدة يصرفون فيها مواهبهم المجهولة ويستغلون ذكاءهم الدفين ، ولعل الركون الى الهدوء والراحة ، وبغض التحرر من القيود التقليدية ، والاعراض عن محاولة الابتكار والتجديد ، هي في مقدمة الأسباب التي تجعل الشاب المصري أقل نجاحا في الأعمال الحرة منه في الوظائف الحكومية .

” وعلاج هذه الحالة لا يأتي بالطفرة وإنما يترك للزمن فهو خير مدرب وأفيد مدرس ، ولا شك أن المثل التي يضر بها الأجانب المقيمون بيننا سيكون لها أثرها الفعال في نفوس شباننا وستكون قدوة حسنة يقتدون بها عندما تقفل في وجوههم أبواب المناصب الحكومية وتضيق بهم مكاتب الشركات . إن أمام الشاب المصري فضلا عن الحياة والوقوف تضطره طبيعة الأحوال الى أن يعتمد على نفسه في حياته ، وهذا الاعتماد الذي لاغنى عنه لذلك النضال سيصهر روح الشباب وعقليته ومداركه ومواهبه وسيجلو نفس الشباب لبعديه فيبتين ما فيها من مزايا وعيوب ، وإذا قلت أن للزمن عمله فلا انسى أن للتعليم المدرسي عمله أيضا فيما يجب من الكشف عن استعداد الشبان وحسن توجيههم . غير اني لاحظ مع الأسف الشديد أن المحاولات التي تبذل في هذا السبيل ليست كافية وأن النظريات المجردة لا تزال تظني في معاهدنا العلمية على التوجيه العمل المفيد ، وانى أعتمد على الزمن أيضا في ترقية البيئة المنزلية التي يتربى فيها الشاب ، فان هذه البيئة على ما هي عليه الآن لا تبهت فيه روح الجهد والاعتماد على النفس والرغبة في الابتكار ومحاولة الخروج عن المدار الضيق الذي تنحصر فيه آمال الشبان ، وهو مناصب الحكومة ووظائف الشركات .

قلت "ولمناسبة ذكر الشركات ، ودولتكم أعرف من غيركم بأعمالها وما تتطلبه هذه الأعمال من مواهب وأخلاق ومؤهلات ، هل ترون أن الشباب المصري يستطيع وهو في حاله الراهنة أن يعوض الشاب الأجنبي فيها ؟ ."

فاطرق دولته مليا وهز رأسه من أعلى الى أسفل ومن أسفل إلى أعلى في حركة تم على الشعور بخطورة السؤال ثم قال :

"نعم يستطيع أن يعوضه ولكن إلى حد ما . وأقول إلى حد ما ، لأنه ينبغي أن لا ننسى أن وراء هذه الشركات رؤوس أموال يجب أن تستثمر على خير الوجوه . فما يمكن أن يتقاضى عنه في بعض الوظائف الحكومية لا يمكن أن يتقاضى عن مثله في أعمال الشركات . إن المسئوليات في مكاتب الشركات محددة تحديدا دقيقا والأعمال موزعة توزيعا عادلا . فأى نقص في الكفاءة أو ضعف في الخلق أو تقصير في العمل لا يلبث أن يبدو واضحاً للرؤساء ولا بد أن يتأثر به سير العمل . لذلك أنصح بأن نسلك في موضوع إحلال المصريين محل الأجانب سلوكا حذرا وثيدا نراعى فيه مبلغ نضجنا وكفايتنا واستعدادنا وإلا أدى التمرع إلى ظهور شكاوى وطعون وانتقادات وأحكام لانحجها . لقد سبقتنا حكومة تركيا إلى هذا الإجراء وأبت الا أن تفرض شبان بلادها على الشركات الأجنبية فرضا وفي فترة قصيرة من الزمان . ولكن هذا العمل ، الذى لا شك في أنه عمل قومى شريف ، قد أحدث هزة عنيفة في دولاب الأعمال ما أظن إلا أنها تركت أثرها فيه . نعم إنى أود لو أعجمض عيني وأفتحها فأرى المصريين يشغلون وظائف الأجانب في الشركات ولكنى في الوقت نفسه أرجو أن تترث وتمهل حتى تراهم يشغلونها بمجدارة مشرفة واستحقاق لا شك فيه .

"أظن أننا لا نختلف في أن محمول شباننا من اللغات الأجنبية محمول ضئيل أو غير كاف ، وذلك راجع الى نقص برامج تعليم تلك اللغات في مدارسنا والى ضعف الوسائل التى تعلم بها فيها ، فكيف نتصور أن حامل شهادة البكالوريا المصرية يستطيع أن يحمل بتفوق أو بنجاح في شركة تدير أعمالها بلغة لم يتمكن منها ، وكيف يتسنى لهذا الشاب أن يفهم التقارير المطولة والمكاتب الفنية أو أن يستقرئ الإحصاءات الدقيقة ويرب عليها النتائج الصحيحة باقعة لا يلم بها ؟

"ولقد لاحظت أيضا أن أبناء الشرقيين المتمصرين قد استطاعوا أن يعوضوا الأجانب في مكاتب الشركات وفى المتاجر ونجحوا في ذلك إلى حد لم يبلغه شباننا المصريون . وذلك راجع بغير شك الى أن هؤلاء المتمصرين نشأوا في بيئة كلها حد ونشاط وصبر وجلد واعتماد على النفس وعدم الاستخفاف بأمور الدنيا وشؤون الحياة ، والى أن آباءهم يعلمونهم العلم والعمل ويدفعونهم إلى ميدان العمل بعد أن يلقنوهم أن نصيبهم من الحظ لا يمكن الا أن يكون معادلا

لما يبذلونه من الجهود . بخلاف أكثر أبنائنا الذين يعتمدون في الغالب على أهلهم وأصدقائهم من ذوى النفوذ والجاه فيرتبون مستقبلهم على هذه الاعتبارات ، حتى إذا تخطاهم الحظ أو قعد بهم التوفيق فقمدا كل أمل ولبشوا ينتظرون الفرصة التى قل ما تسع .

”على أنه إذا دخل فى روع شباننا وثبت فى وهمهم أن الأجانب قد سبقوهم إلى ميادين النجاح بمراحل يتعذر عليهم ادراكهم فيها ، فلا أقل من أن يتخذوا من الشرقيين المتحصرين قدوة لم يحتذونها . وحسبهم أن يماموا أن كل أصحاب تلك الأسماء المشمورة منهم لم ينشأوا أغنياء وإنما نشأوا فقراء فأوصلهم الجهد والاعتاد على النفس إلى الغنى الذى وصلوا إليه .

”لا يكفى أن تقتصر اعتمادنا على مصر يتنا لدعى الأحقية فى شغل وظائف الشركات . وإنما ينبغى أن نسمو بمؤهلاتنا وأخلاقنا حتى نكون أهلا لها . وأرجو أن يفنى هذا التلميح عن تفصيلات لا أريد الخوض فيها “ .



قلت : نحن نسمى دولتكم ” رجلا ناجحا “ فهل تحدثوننى عن الصفات الخلقية والنفسية التى تساعد العلم والذكاء على ادراك النجاح ؟

فأجاب دولته :

”النجاح؟... ومن ذا الذى يستطيع أن يخضع النجاح للقواعد والقوانين؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يسقط نصيب الحظ والصدفة والعوامل الخارجية فى النجاح ؟ ... ولكنى برغم هذا أقول لك أن لسائر الناس خمس حواس عرفت بأسمائها . وهنالك حاسة سادسة لا تتوافر إلا فى بعض الموهوبين . وهذه الحاسة السادسة لا أعرف لها اسما ، ولك أن تسميها ” حسن الوزن “ أو ” جنس التقدير “ فإذا اجتمعت هذه الحاسة مع العلم والذكاء فى إنسان فهى تهديه إلى حسن وزن الأمور وإلى حسن تقديرها فيستطيع أن يتبين بها الممكن من المستحيل وحدود الإمكان وحدود الاستحالة فى جميع المشروعات التى تمر بخاطره .

” أنك عند ما تريد أن تجتاز الشارع وترى سيارة مقبلة من اليمين أو من اليسار فإنك تقيس بهذه الحاسة المسافة التى تفصل بينك وبينها وترتب على هذا القياس إقدامك أو إجمامك ، كما أنك ترتب عليه إبطاءك فى الخطو أو إسمراعك فيه ، وكثيرون من الناس يخطئون فى القياس فتصدمهم السيارة ، وكثيرون منهم يخطئون فى القياس أيضا فيترشون أكثر مما يجب التريث فبضيعون الفرص .

”هذه الحاسة الموجودة بالفطرة في الانسان العاوى تنمو وتتوقد في بعض الأذ كياء.
والمتعلمين فتحمل الواحد من هؤلاء الموهوبين كلما خطر له مشروع ، على أن يقبس حدود
قدرته وحدود عوامل النجاح التي بين يديه وحدود الظروف الملائمة لمشروعه وحدود الطوارئ.
غير المتوقعة التي قد تطرأ عليه ، فتي أحسن الوزن والقياس لم يبق أمامه الا أن يقدم فينجح.
أما إذا لم ينجح فعنى ذلك أنه اخطأ في الوزن واتقياس والتقدير .

”على أنها حاسة تصادفها في كثير من الناس ، وأظن أن فقدانها كان السبب الأهم
في فشل بعض عظماء التاريخ ولا يزال السبب الأهم أيضا في إخفاق مشروعات كان المظنون
أن يلازمها النجاح .

قلت : ”إن حياة دولكم حياة كلها جهاد ونضال ، ولا بد أنكم أخفقت مرة في مشروع
خطير أو فشلت في تحقيق خطة كنتم تتظنون لها نجاحا كبيرا ، فماذا كان أثر الفشل
والإخفاق في عزيمتكم ، وهل وصل بكم مرة إلى حد اليأس الذي يقعد عن معاودة السعى
والعمل ؟

وها صحتك دولته ضحكة الذكي المتنبه الذي لا يخفى عليه خبث محدثه وقال :

”إنك تحاول أن تجرني إلى الكلام عن نفسى . ولكن لا بأس وليكن لك ما تريد ، فلعل
خبرتى وتجاربى ووسائلى تفيد الشبان الذين تنقل اليهم هذا الحديث .

”لقد عرفت حلو الأيام ومرها ولقد صادفتنى صعوبات كثيرة وصدمتنى صدمات
هائلة ومع ذلك فها أنا ذا كما ترى لم أغرق في خضم الحياة الذى ابتلع كثيرين غيرى .

”إنى لم أعرف اليأس قط ولم يحطم الإخفاق إرادتى ولم يقل عزيمتى ، وكنت دائما
وفى كل أحوالى أعتمد على نفسى وأومن بأن الشئ ما دام ممكنا فلا بد من الوصول اليه إن
لم يكن من هذا الطريق أو ذاك فمن طريق غيرها .

أى نعم ! لقد صدمت صدمات كفيلة بأن تنهى حياة رجل سياسى أو لا تدع له أملا
في العودة إلى مسرح السياسة ، ولقد ظن الناس عقب كل صدمة من هذه الصدمات أنى لن
تقوم لى بعدها قائمة ، ولملك تذكر الظروف التي خرجت فيها من الوفد المصرى ، ولملك تذكر
أيضا الظروف التي فرقت بين بعض الزعماء وبينى ، واختلاف وجهات النظر الذى أدى إلى
استقالة وزارتى سنة ١٩٣٣ ، لقد كانت هذه كلها حالات موجبة لليأس ولكننى لم أياأس قط .

” كنت في كل مرة أستعرض حالتي كما يستعرض التاجر دفاتره أو كما يفحص الميكانيكي الجهاز المعطل بين يديه ، فإذا وجدت خطأ في الحساب عرفته وصححته وأقمت عمل على حساب جديد ، وإذا وجدت قطعة في الجهاز مكسورة استبدلت بها غيرها ، وإذا رأيت أن الجهاز كله غير صالح أتيت بجهاز جديد، وبذلك أعاود السعي وأستأنف المسير فأصل وأنجح في بلوغ ما أريد .

” يجب الصمود للشدائد والاعتماد على النفس والإيمان بأن صدق العزم وحسن الوسيلة كفيلا للوصول إلى الغاية وهذه هي النصيحة التي أقدمها إلى شباب هذا الجيل “ .

وهنا رأيت أني أسرفت في استغلال لطف الرجل بالإطالة في هذا الحديث فوقفت عندهذا الحد وشكرت لدولته فضله وطول أماته وودعته على أن أعود إليه كلما فكرت في أن أزيح إلى شبابنا حديثا قيا ممتعا مملوءا بالإرشادات القائمة على تجارب الأيام وخبرة الحياة “ .

ح . ١ .

- خبطة العاقل في رأسه ، وخطبة الجاهل في نفسه .
- الوقت عدو مجتهد ، لا يدافعه إلا مجتهد .
- الشباب أعراس الجمال ، والمشيبي مآتمه .
- الخاصة أذوق لحكمة البيان ، والعامية أذوق لحكمة الإلحان .
- العامة أذئاب من يمسخ رءوسهم .
- يهدم الصدر الضيق ما يبني العقل الواسع .

شوقي